أ. بن ترات جلول-جامعة الجيلالي ليابس –سيدي بلعباس-

لقد إرتبط مفهوم الهوية بتلك الثوابت التي حددت ملامح الإنتماء الروحي والتاريخي وكل ما يشكل حجر الأساس لمقومات شخصية كل شعب مستقل بلغته ودينه وتاريخه ، هذه المقومات تمثل في بعدها الحضاري أصالة القيم التي تجمع بين الماضي والحاضر وكل ما ينطوي تحتها من موروث إسلامي تنامت معه الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري الذي تعزز وجوده ضمن تلك الفترة التاريخية التي صنعت ثقافته وصاغت أهم حلقة من حلقات هويته الوطنية التي تخلقت في رحم الوعي التحرري الذي صاحب ميلاد منظومته القيمية التي استقام على ضوئها خطاب الزوايا الذي انفرد بخصوصياته في تعليم الشعب وتربيته روحيا لمقاومة كل استلاب عقائدي أو اغتراب ثقافي كان من شأنه أن يدمر الثوابت والمقومات التي تمثل مرجعا لتلك الهوية، وهو ما انصرف إليه الاحتلال الفرنسي في سياسته الاستعمارية إلى إجهاض هذه الجذور الروحية والتاريخية من خلال أساليب الغزو الفكري والثقافي والتبشير الديني ومن ثم تمييع روح هذا الشعب ضمن ذوبانه حضاريا وتكييف قابليته للاستعمار والإقتداء بهم، وهو ما شكل نقطة تحول في العمق التاريخي الذي استوعبته شخصيته التي حملت كل المكونات الوجدانية التي تعكس أصالة الوعي الإسلامي الملازم لخطاب الزوايا الذي أضاف للشعب الجزائري جملة من القوى الروحية التي تجاوز من خلالها اغتراب الاستعمار لهويته ليكيف تلك القوى مع آليات التحرر التي ساهمت في تعزيز لغة الزوايا التي شكلت مرجعا لمقاومة تلك التكتلات العنصرية والثقافية التي اختزلت ذلك الصراع العقائدي والإيديولوجي الذي سلكته الدول الغربية قصد الاستيلاء والهيمنة وإدارة الحركة العالمية بما يتنافر مع حق الشعوب في الدفاع عن هويتها واستقلالها السياسي، ومن هذا المنظور فإن إحياء تلك المقومات الجوهرية للهوية الوطنية قد صاحبت المقاصد السامية للزوايا في إرساء تلك المنظومة القيمية وذلك بتنشئة الفرد تربويا وتعزيز قيم الوطنية عنده باعتبارها جملة من المشكلات التي لا يمكن التنازل عنها، وهذا ما يعد تخطيطا قد عزز نجاح الثورة على الصعيد السياسي والعسكري ليلتقي هذا الخطاب مع مشروعية الاستمرار في الكفاح لاسترجاع تلك الحرية والكرامة وكل الحقوق التي سلبت ضمن جدلية القوي والضعيف، هذه الجدلية قد استوعبتها لغة الزوايا في الجزائر، أين قامت بإجهاض كل مفهوم يحمل دلالات الاستسلام أو الانهزام للغرب مما شكل انتصارا معنويا عند الشعب الجزائري الذي لم يكترث لتلك الأساليب العنصرية للاستعمار لأن تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم قد شكل فضاءا روحيا اجتمعت فيه تلك الأهداف والمقومات التي تحمل خصوصيات المجتمع الجزائري المسلم، وبذلك فقد حاولت المدارس الفرنسية أن تحول ذلك المجتمع إلى مجتمع أكثر جهلا وبربرية ، ولكن

حضور الزوايا قد حال دون ذلك لأنها كانت بمثابة تلك المؤسسة الثقافية التي انصرفت إلى ترقية التعليم وبث تلك الروح التي أعادت بناء الوعي النهضوي الذي يتعايش من خلاله الماضي مع الحاضر لتصبح كل حلقة من حلقات التواصل التاريخي والروحي مع مقومات هذا البناء حجر الأساس للهوية الوطنية التي قاومت المشروع الاستعماري في تنصير الجزائريين من خلال التعليم ذي البرنامج التمسيحي الصريح قصد هدم العقيدة والأخلاق الإسلامية وبث تقديس ثقافة الغرب وحضارته.

إن التربية الدينية التي حملت رسالة الزوايا في تلك الفترة الاستعمارية تمثل تجديدا حضاريا ساهم في ممارسة قيم المواطنة والاعتزاز بالوطنية التي تشكل استثمارا حقيقيا انتقل من خلاله الفكر الجزائري من التوحش والبربرية إلى المدنية والتحضر الذي تحكمه الضوابط الإسلامية وهكذا قام مقام هذا التطور خطاب الزوايا الذي أصبح مسؤولا عن تكوين العناصر القيادية التي تعمل على تعزيز وتحصين الهوية الوطنية حتى لا يتحول الجزائريين إلى أتباع وعبيد للغرب يحكمهم منطق إقتداء المغلوب بالغالب على حد تعبير " ابن خلدون" أو أن يحملون الشعور بقابليتهم للاستعمار على حد تعبير "مالك بن نبي" ومن ثم فإن الهوية الثقافية التي حملت في طبيعتها كل آليات السيطرة السياسية والعسكرية لإذابة الشعب الجزائري في الكيان الفرنسي ومصادرة انتمائه الجغرافي لهذه الأرض والديني لهذه الأمة التي سلكت بالتربية والتعليم مسلك البناء الحضاري والنهوض بالإنسان روحيا وهو ما يتلاءم مع دور الزوايا في تفكيك سياسة الاستعمار ، وتثقيف الشعب حتى لا يتنكر لمعتقداته وقيم هويته التي حاولت الثقافة الفرنسية تكييفها وفق متطلبات الحضارة الأوربية التي نزلت بالإنسان إلى مرتبة الحيوان وسلبته وجوده الحقيقي لتبرمجه كآلة تعمل بدافع الاستجابة لقانون الغريزة الأعمى أو لدرجة تسليعه محكوما بقانون العرض والطلب، هذه الثقافة قد اصطدمت بجدار الحضارة الإسلامية التي حملتها الزوايا التي قاومت المدارس الفرنسية معتبرة من يدرس بهذه المدارس يعد مسخا للشخصية العربية الإسلامية وانهيار منظومة القيم التي تعد مرجعا للنهضة الثقافية التي أرشدت الطفل الجزائري روحيا وهو ما ساهم في اكتمال النضج الثوري والسياسي عند ممارسة الوعي الثوري وإحداث القطيعة مع تلك المدارس التي أنتجت لنا فكرة الإدماج التي رحبت بها بعض الوجوه التاريخية أمثال كل من أحمد ين بريهمات ومجدوب بن قلفاط ومحمد موالح ومحمد صالح بن جلول وفرحات عباس ونحوهم من آمنوا بالأبوة الفرنسية.

إن الذين أرخوا لتطور الفكر التربوي في الجزائر يجمعون على حقيقة مفادها أن طبيعة التجديد التي ميز خطاب الزوايا قد بدأ بتوعية الشعب الجزائري واكتمل في المحافظة على هويته الوطنية والاعتزاز بأصالته التي احتفظت بعمقها التاريخي في اللغة العربية والدين الإسلامي، وهذا ما ساهم في إعادة قراءة هذا

الموروث القيمي والحضاري التي استنسخته لغة التقليد عند الزوايا حاليا مما أحدث أزمة تواصل بين الماضي والحاضر، وأزمة فهم الآخر من خلال التعصب الديني و الحضاري ، ومن ثم خطاب الزوايا ليس مجرد اجترار للبنى الثقافية وإنما وعيا قائما بذاته في العقل والشعور والفكر والسلوك وهو ما عزز دور الحركة الوطنية في المحافظة على مقومات الهوية الوطنية لدى الشعب الجزائري، هذه الحقيقة التاريخية جسدت رسالة الكتاتيب والمدارس القرآنية التي ساهمت في تماسك عناصر هذه الهوية أين حملت المدارس الفرنسية بذور فنائها من الداخل، وهو ما عزز لغة التحدي في مقاومة الجهل والأمية والفقر والمرض عن طريق منظومة تعليمية شكلت بديلا أقامت على ضوئه الزوايا في الجزائر فلسفتها الروحية لدعم قيم الثورة كنظرية وممارسة تحرر الشعب الجزائري ثقافيا ودينيا وحضاريا وإيديولوجيا.

إن الطابع القومي الذي يميز الثقافة العربية يشكل تلك القيم التي تمثل اللسان الذي يتحدث به الشعب الجزائري وهو ما يظهر جليا من خلال التكوين العقائدي الذي صاحب وعيه الذي تخلق في رحم الثورة التي منحت الشعور بالاعتزاز الذي نما ضمن خطاب الزوايا الذي صاغت المساجد دلائله الروحية التي اختزلت تلك الدينامية التي هيأت الشعب الجزائري نفسيا لاحتواء ضعفه، أين تحطمت قوة الاستعمار رغم أساليب الهيمنة العنصرية وهو ما صاحب لغة المقاومات الشعبية التي انفتحت على النظم التربوية والتعليمية للزوايا التي شكلت برنامجا لتجديد فهم الهوية الوطنية وإعادة هيكلة كل عناصرها تحت ما تنطوي تحته مكونات الثقافة الإسلامية الصحيحة، فالتراث العربي الإسلامي يحمل في طبيعة تطوره تجليات الدور التعليمي للزوايا في المحافظة على الثقافة العربية والهوية الإسلامية للجزائريين من خلال ما يظهر في تلك المناهج والنظم والإدارة التعليمية التي ربطت عناصر هذه الهوية بالماضي والحاضر والمستقبل أين تعزز مفهوم الانتماء الإسلامي والحضاري للأمة العربية: "وبذلك فإن ما تحمله الهوية الوطنية يتحرك في حدود ربط السلف بالخلف من خلال اعتبار اللغة العربية لسان الإسلام وانتمائها الثقافي والحضاري ومقوما للشخصية الوطنية الرافضة للاستعمار"1.

لقد سلكت الزوايا مسلك التربية والتعليم خلال فترة الاحتلال الفرنسي لتتعزز الحركة الوطنية في دعم قيم الثورة وصياغة ملامح الشخصية الوطنية، أي ساهمت زاوية عبد الرحمن الثعالبي، وزاوية وكيد دادة، وزاوية عبد القادر الجيلالي، وزاوية سيد محمد الشريف، وزاوية سيدي أحمد عبد الله الجزائري، وزاوية سيدي الجودي ..إلخ في نشر الوعي الديني قصد المحافظة على التماسك العقائدي لمقاومة كل مسخ أو اغتراب ثقافي ولغوي من شأنه أن يلغي وجود الجزائريين ويدفعهم إلى الذوبان في السياسة الاستعمارية التي بدأت بفرنسة الإقليم واللغة وكل ما يضر مقومات الشخصية الوطنية، "ومن ثم فإن خطاب الزوايا قد تجاوز ما ذهب إليه الحاكم الفرنسي العام للجزائر عام 1832 قوله: "آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال

عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا"2 .

إن لغة التجديد التي صاحبت خطاب الزوايا في الجزائر يظهر جليا في تلك الفترة من خلال مقاومة الترويج للنصرانية والقضاء على الإسلام، مما اعتبره المؤرخين لحركة تطور الزوايا بمثابة حصنا منيعا للقيم العقائدية التي جمعت بين الوسيلة والغاية لفهم الهوية الوطنية خارج الزوايا في ثقافة المحتل وعقيدته، ولهذا فطبيعة هذا الفهم قد أحدث قطيعة كلية مع سياسة الاحتلال التي خططت لدمج الجزائر في فرنسا عن طريق ربطها سياسيا وإداريا بفرنسا وهضمها روحيا ولغويا في الشخصية الفرنسية"3، فتجليات هذه القطيعة قد قاومت المسخ الاستعماري للمحافظة على المقومات الأساسية للشخصية الوطنية الجزائرية، وهكذا تحولت الزوايا إلى مؤسسة دينية وثقافية تهتم بتفكيك كل عناصر التمييع الثقافي للشخصية وإعادة بناء الوعي الجماعي، وتعزيز روح الانتماء الجغرافي لدى الأفراد وهو ما شكل التحول النهضوي عند الشعب الجزائري الذي اكتمل بناء الهوية الوطنية في الدين واللغة والوطن" ولذلك فكل حلقة من حلقات هذا البناء تجعل من الزوايا مصدر إشعاع للفكر الديني الإسلامي ورمزا من رموز الثقافة المتأصلة ونموذجا للزوايا الصالحة التي خدمت اللغة العربية والثقافة الإسلامية طيلة العهد الاستعماري وبعده"4.

إن المتأمل للغة الروحية التي طبعت الزوايا يعتقد بحضور القيم الصوفية التي ارتقت بالضمير الوجداني للشعب الجزائري ليرتمى المواطن في أحضان الصوفية ويعيش في عالم الروح والتخيلات متخلصا من القهر والحرمان في ظل المخططات الاستعمارية التي ترمي إلى سلب الجزائريين هويتهم ـ إلا أن في العبادة والتعلم والإرشاد قد استأنست بها الزوايا لنشر الأفكار والتعاليم التي تتلاءم مع مقومات الوطنية وقد أقامت المساجد خطابها لتحديد ملامح الاستعداد الروحي لتعزيز سلم القيم الذي ساهم في بلورة الجذور الحقيقية للهوية الوطنية.

إن الدور الاجتماعي للزوايا قد انصرف إلى إجهاض كل ملامح الانحراف ضمن إثراء التواصل التاريخي والحضاري مع النهضة الإصلاحية التي منحت للتربية الخلقية التي شكلت حجر الأساس للهوية الوطنية، التي لا تقوم على التقليد وإنما ارتبط مفهومها الثقافي وبعدها الروحي بتجديد كل آليات النهوض بالمقومات الثابتة للشعب الجزائري، " وبذلك فإن الاستعمار يبدأ بالتشبث بالقيم الأصيلة دينا ولغة باعتبارها البديل الطبيعي لمواجهة ثقافة المحتل وأساليبه ووسائله والعمل على إرساء الأداء التربوي والاجتماعي للزوايا"5.

إن ما يشكل فلسفة البناء الروحي لعناصر الهوية الوطنية ينطلق من التأصيل الإسلامي لهذه العناصر التي تسمو بأدوات التجديد والاندماج لغويا ودينيا

وهو ما منح للشعب الجزائري الشعور بالاعتزاز الذي يمنح لدور الزوايا في إجلاء هذا التأصيل في مجال التربية والتعليم والتصوف.

إن الحديث عن خطاب الزوايا لا يخرج عن نطاق التصوف" الذي ساهم في ترويض وتعويد النفس على الاتصال الوجداني بالمعتقدات التي تحدد أطوار تشكل الهوية الوطنية أين استوعب تاريخ الثورة الجزائرية حلقات هذا الاتصال"6 ومن هذا المنظور فقد زودت الزوايا الشعب الجزائري القدرة على التعبير عن ذاته عندما اختزل هويته الوطنية عن طريق إحياء القيم التي أنشأتها الثورة التحريرية لتجديد الوعي التحرري عنده أين يكون احترام وتقدير الثقافة الروحانية المستمدة من الدين واللغة أساس فهم ثوابت الهوية الوطنية دون تمييعها في التقليد والتبعية للآخر.

إن الوعي الديني الذي صاغ الملامح التاريخية لتطور الزوايا في الجزائر" قد تعايش مع فهم الهوية الوطنية التي نمت في حدود النظام التربوي والسياسة التعليمية التي وجهت ثقافة الشعب الجزائري بتحريرها من الهيمنة الاستعمارية التي استعبدت الفكر والسلوك وانصرفت إلى قمع أفكاره ومصادرة قيمه الروحية والحضارية"7وبذلك فإن تلك الزوايا والكتاتب القرآنية قد حددت روافد الشخصية الوطنية فأقتصر دورها الروحي في تجديد قيم الإصلاح الديني التي بعثت فيهم ا لروح الإسلامية والغيرة الوطنية"8.

إن قراءتنا للخطاب الزوايا بين التقليد والتجديد ينطلق من فهم وضعية المنظومة القيمية للدين الإسلامي الذي يمثل حجر الأساس لبناء الوعي الذي يحكم الرسالة الروحية للزوايا أي تكتمل أدوار فهم الهوية الوطنية التي تخلقت في رحم الدين ونمت ونضجت في اللغة والتاريخ، ولهذا الغرض فقد أنتجت ثورة نوفمبر الهوية الوطنية التي لم تتزعزع تاريخيا" لأن مصدر عناصر هذه الهوية قد صنع كل شروط النهضة وما تنطوي تحتها من مكونات الثقافة الإسلامية."9

إن العلاقة بين الماضي والحاضر تظهر جليا من خلال الانتماء الحضاري إلى الأمة العربية التي منحت للشعب الجزائري كيانه الروحي والتاريخي من خلال فهم هويته، وهو ما جعل الزوايا تنصرف إلى التعريف بهذا الكيان" الذي استوعبه التراث الإسلامي ضمن تلك الأساليب التي جسدت اللغة التي استخدمها المعلمين والأئمة لبناء أنماط ثقافية يحافظ من خلالها الشعب الجزائري على هويته الوطنية"10.

إن محاولة استلاب الشخصية الجزائرية ضمن سياسة الغزو والإدماج قد حمل الزوايا في خطابها الديني إلى إنشاء تلك المدارس القرآنية التي أحدثت ثورة على الاحتلال الفرنسي ، وقد ساهمت جمعية علماء المسلمين على لسان العلامة ، عبد الحميد ابن باديس إلى إفشال كل مشروع استعماري يسعى إلى طمس الهوية الوطنية ومن هذا المنظور قد تعايشت كل عوامل الثورة وعناصرها التحريرية

ليتحرر الشعب الجزائري من مرحلة العبودية إلى مرحلة السيادة، " وبذلك فإن مهمة الزوايا تكمن في صناعة شروط النهضة للاستثمار في الإنسان روحيا"11.

لقد حملت الزوايا في سيرورتها التاريخية كل مقومات التنشئة الروحية والاجتماعية للشخصية الوطنية أين كان للتعليم أثرا كبيرا في تهذيب النفوس وتهيئتها لمقاومة الاستعمار الذي حمل ثقافته المسيحية لطمس الهوية الوطنية وتسويقها في خطاباته وأساليبه" إلا أن الطاقة الروحية قد امتزجت مع الطاقة الثورية فانصرف الشعب الجزائري إلى تعزيز العمل الدعوي في المؤسسات الدينية وتكييفه مع دور الزوايا أين تهيأت أسباب الهزيمة للاستعمار الفرنسي"12

ومن هذا المنظور فإن ما قدمته الزوايا للثورة الجزائرية يعد فضاءا روحيا استمد منه الشعب الجزائري أدوات فهم هويته الوطنية وتحرير الأرض من هيمنة الاحتلال التي مست المعتقد واللغة والثقافة ، وبذلك فطبيعة هذا الوازع الروحي قد ساهم في تقوية عناصر الذاكرة الجماعية لاحتواء كل التحديات التي فرضها الاستعمار، ومن ثم فإن الواقع الحالي للزوايا قد جعل من التقليد يختزل دورها السلبي الذي مارس على الفرد الجزائري اغترابا دينيا وهو ما فسح المجال للعولمة والحضارة الغربية في تمييع الهوية الوطنية عند الجزائريين الذين انساقوا وراء هذا التقليد والبحث عن نموذج آخر لاستهلاك ثقافته، هذا الواقع حول الزوايا إلى جسد لا روح له بحكم تبعيتنا للآخر وانبهارنا بحضارة الغرب مما كان لزاما على الزوايا تحديد أساليبها لاحتواء هذا الفناء الداخلي للجسد وإحيائه من جديد للمحافظة على هويتنا الوطنية التي استقام مفهومها مع أصالة الأمة الإسلامية، "وفي إطار هذا المعنى يشكل الشعور الديني والسلطة المطلقة للزوايا في بلورة القيم الصوفية التي تهتم بتربية الفرد وتكييف قابليته لطبيعة هذا الشعور والسلطة وممارسة هذه القيم في نطاقها الصحيح"13 .

إن طبيعة النموذج الروحي الذي أرست دعائمه الزوايا تاريخيا يشكل حلقة من حلقات الوعي الإسلامي الذي استوعب هذا الخطاب الذي جدد آليات فهو الهوية الوطنية وعزز في نفسية الشعب الجزائري سيادته الجغرافية والدينية واللغوية أين تجاوز كل من سياسة الإدماج والتجهيل والتبشير، وبذلك استرجع هذا الشعب كرامته وحريته ومن ثم يبقى خطاب الزوايا مرجعا تاريخيا ظهرت تجلياته في فهم الهوية الوطنية المعاصرة في حين لغة فهم هذا الخطاب يبقى ملازما لآليات التجديد التي حددت طبيعة ثوابت الأمة الإسلامية التي ارتبط وجودها باللغة والدين والتاريخ والمصير المشترك وهذا ما استوعبته الهوية الوطنية التي احتفظت بهذه الثوابت أين أصبحت القواسم المشتركة للتاريخ عند الجزائريين تقوم على تعزيز قيم الأصالة لمقاومة كل تبعية أو اغتراب ثقافي يجعل من الشخصية الوطنية تحمل بذور فنائها من الداخل.

الهوامش:

1- أبو القاسم محمد الخفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ، الجزائر مؤسسة الرسالة ، بيروت 1985 ،ص 87.

2- عمر فروخ، مصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، 1953 ،ص 105.

3- عبد العزيز شهبي: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2007 ،ص 44.

4- المرجع نفسه: ص 85.

5- رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الوطنية، الجزائر 1975 ،ص 215 .

6- بودواية بلحيا: التصوف في بلاد المغرب العربي: دار القدس العربي، وهران، الجزائر ، ط1 ، 2009 ،ص 40.

7- بن شهرة المهدي: الطرق الصوفية في الجزائر السنية، دار الأديب، وهران، الجزائر ، 2004 ،ص 124 .

8- محمد نسيب : زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر ، الجزائر ، 1989 ، ص 84 .

9- مقران يسلي: الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1991 ،ص 224.

10- محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة / ج1 ، دمشق 1965 ،ص 120.

11- إبراهيم ساسي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر 1955 ،ص 143.

12- عوض خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية في شمال إفريقيا عمان، 1982، ص 76.

13- عمار هلال: الطرق الصوفية في نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر، 1988، ص135 .